نسرين مغربي*

شقائق النعمان ومجاز السنونو

مئير شاليف. "حديقتي البرّية" (بالعبرية).
تل أبيب: عام عوفيد، ٢٠١٧. ٢٤٧ صفحة.

تابعتُ باهتمام مؤخراً لقاء من حلقتين أُجري مع الكاتب والروائي الإسرائيلي مئير شاليف على إحدى القنوات الإسرائيلية، ودار موضوع اللقاء حول كتاب صدر له حديثاً بعنوان "حديقتي البرّية" يتحدث فيه عن ملاحظاته ومغامراته في تربية حديقة زهور برية في بيته الكائن ـ بحسب وصفه ـ في منطقة حدودية تقع ما بين مرج ابن عامر والجليل الأسفل.

في البداية ثار فضولي لأن الكاتب أبدى ملاحظة عن زهرة تدعى "العُنصل" يمكن، بحسب هيئتها في عام ما، التنبؤ بموسم الأمطار في السنة المقبلة. وقال أنه استقى هذه المعلومة من أحد البدو. وعندما طالعت الكتاب وجدت أنه أفرد فصلاً لزهرة العُنصل التي سمّاها "الزهرة الحكيمة"، لأنها تزهر في أواخر الصيف كي لا تضطر إلى الدخول في منافسة مع بقية الأزهار في محاولة جذب الحشرات لتلقيحها.

كتب شاليف أنه زرع بعض أزهار العُنصل في حديقته، والبعض الآخر بجانب قبر أمه وأخواله، وأضاف أنه اكتشف لاحقاً أن زرع العُنصل بجانب القبور أمر شائع عند العرب الذين يرون أن لون الزهرة الأبيض يشهد على طهارة الميت.

في الحقيقة ليست زهرة العُنصل وحدها التي أثارت فضولي، فقد تحدث في الكتاب أيضاً عن شقائق النعمان واشتقاقات تسميتها، فأورد بناء على كتاب بعنوان "الكلمات وتاريخها"، أن اسمها العربي يعني "جروح نعمان"، وأنها مذكورة في التوراة في سفر إشعيا الذي يصف النساء اللواتي يغرسن "غرس النعامين" (لم أجد في العهد القديم مفردة النعامين فالترجمة هي "أغراسا نزهة") التي تذبل في الصيف، ويرجح أنها مرتبطة بعبادة الإلهَين أدونيس وتموز.

ويستمر الكاتب في الحفر الأركيولوجي لاشتقاقات الاسم الذي يبدو أن الاسم العربي حافظ على هذه الخاصية الأسطورية، قائلاً إن شقائق النعمان تسمى باللغتين اليونانية والإنجليزية باسم مشابه هو anem-one. والجميل هنا هو دخول مدينتي عكا إلى الصورة، إذ يورد أن أحد المؤرخين القدامى ادّعى وجود قبر لإلهة تدعى Memnon قرب جدول بيلوس الواقع على أطراف مدينة عكا، والذي نسميه بالعربية نهر النعامين. طبعاً

* كاتبة فلسطينية مقيمة في عكا.

هذه المعلومات أثارت فضولي، وعندما استقصيت في "الإنترنت" عن نهر النعامين وجدت المعلومة التالية في موقع الموسوعة الفلسطينية (في الرابط الإلكتروني التالي: https://tinyurl.com/ty8npgq): "يرتبط اسم نهر النعامين بصناعة الزجاج في العصور القديمة، فقد اكتشف الفينيقيون صناعته من الرمال التي يضعها هذا النهر قرب مصبه، وكان النهر معروفاً في السابق باسم بيلوس أو بعل."

ولنهر النعامين معزّة في قلوب أهل عكا، حتى إنهم يتندرون أنه إذا ما غادر أحدهم المدينة وتجاوز النهر (الذي يحدّها من الجهة الجنوبية على الطريق المؤدية إلى مدينة حيفا) ولو لمسافة قصيرة، فإنه عندما يعود يحلف: "وحياة غربتي"!

أمّا بالنسبة إلى اشتقاقات شقائق النعمان بالعربية فنجد في "لسان العرب" ما يلي: "شقائق النعمان: نبت، واحدتها شقيقة، سُميت بذلك لحمرتها على التشبيه بشقيقة البرق [شقيقة البرق: عقيقته وهو ما استطار منه في الأفق وانتشر]. وقيل واحده وجمعه سواء، وإنما أضيف إلى النعمان لأنه حمى أرضاً فكثر فيها ذلك. غيره: ونَوْر أحمر يسمى شقائق النعمان. قال وإنما سُمي بذلك وأضيف إلى النعمان لأن النعمان بن المنذر نزل على شقائق رمل قد أنبتت الشَّقِر الأحمر، فاستحسنها وأمر أن تُحمى، فقيل للشَّقِر شقائق النعمان بمنبتها، لا أنها اسم للشَّقِر. وقيل النعمان اسم الدم وشقائقه قِطَعه، فشُبهت حمرتها بحمرة الدم، وسُميت هذه الزهرة شقائق النعمان، وغلب اسم الشقائق عليها."

وأعتقد أن الملاحظة الأخيرة في لسان العرب تشير إلى المعلومة الأسطورية الخبيئة فيها بارتباط هذه الزهرة بالآلهة التي تقطّعهم إرباً عند موتهم. فالشقائق هي القطع، والنعمان اسم الدم كما ورد. وغنيّ عن القول أن هذه الزهرة مرتبطة بالمخيلة العربية بالموت والاستشهاد حصراً.

علاوة على هذا الحفر الأركيولوجي في الاشتقاقات اللغوية لا بد من التعليق على ملاحظات وعبارات أوردها الكاتب، ومتعلقة بالقرى الفلسطينية المهجرة وأشجارها المثمرة التي لم يجد الكاتب، على ما يبدو، مفراً من التطرق إليها. فالكتاب طريف لأنه يستوجب حفراً "أركيولوجياً" في طبقات نفس الكاتب بحد ذاته. فيبدو لي أنه مشغول بـ "تحت وعيه" (subconscious) بالصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي، على الرغم من أنه أعلن في المقابلة المذكورة أنه ليس كاتباً سياسياً، لكن يبدو أن الواقع "يفشخه" كما يقال. فلا يمكنه إلاّ التعليق ولو بروح دعابة تُخفي في رأيي حرجاً معيناً. فعند عرضه الحياة الزاخرة في حديقته نجده يتحدث عن صراعه مع موجوداتها من نباتات وحشرات وحيوانات بلغة حربية أحياناً، لا تخلو من طرافة، لكنها تعبّر عن هذا الجانب الحاضر بقوة في الثقافة الإسرائيلية المعتمدة ـ على حد تعبير أحدهم ـ على أن الشعب الإسرائيلي "يعيش بقوة سيفه".

لنأخذ مثلاً موضوعاً بسيطاً تطرق إليه الكاتب عند حديثه عن شجرة الزيتون وعملية "كبس" (تخليل) الزيتون، فيقول إن العبرية مولعة بالجذر "ك. ب. ش." (المفردة العبرية قريبة جداً من ناحية صوتية هي كَبَشْ، والتي تحمل عدة معانٍ بالعربية (كبس) تفيد معنى استعمال القوة منها: غزا؛ احتل؛ ضغط) فيقول: "العبرية تحتل البلد؛ تغزو المرأة؛ تمهّد الطريق؛ تكبح الغريزة؛ تضع شخصاً في السجن أو تفرض عليه العبودية، وإذا تبقّى للناطقين بها أي قوة فإنهم يكبسون الزيتون أيضاً."

أمّا بالنسبة إلى كلمة الأرض (الكلمة العربية الأقرب اليها من ناحية صوتية هي "الأديم") فإنه يقول إن "الأرض بالعبرية مرتبطة بكلمتَي 'الأحمر' و'الدم'، كما أنها مرتبطة أساساً بالإنسان (آدم)، فهو ابنها، منها خُلق، وإليها يعود، وعلى اسمها سُمي. فهي أم كل ما هو حي أكان نباتاً أم حيواناً. كما اشتُقّ منها بعض المصطلحات العبرية المشحونة أيديولوجياً: أرض آبائنا؛ فلاحة الأرض؛ الأرض البكر؛ الأرض المقدسة؛ الأرض الأم."

أمّا المضمون الأمني العسكري فنجده، مثلاً، في وصف الكاتب صراعه مع دبابير وجدها في حديقته، فيقول:

فهمت أنه "عش دبابير" موجود عندي في الحديقة.

يخيل إليّ أني كتبت من قبل أنه على الرغم من أني صاحب هذه الحديقة بموجب قوانين الدولة، إلاّ إني أعترف بملكية بقية المخلوقات التي تعيش فيها. لكني أطالب بأن تعاملني بالمثل: "تعترف بي وبحقوقي"، وخصوصاً حقي الأساسي في التجول فيها بأمن وأمان، وأن أعود إلى بيتي بسلام.

ويضيف بالنسبة إلى حربه المعلنة على عش الدبابير:

تشاورت مع نفسي ومع الآخرين، وتوصلنا إلى أنه على ضوء عدوانية الدبابير ومستوى أدائها العالي، فإنه يحق لي أن أرى أني أنا، وليس هي، كائن على وشك الانقراض؛ فأعلنت الحرب.

هنا يجدر بي تحذير بعض القُرّاء الحسّاسين الذين من الأفضل لهم تجاوز هذه الصفحات، لأنهم من الآن فصاعداً سيجدون تصويراً قاسيا للحرب والقتل، ليس مهيأ لهما مرهفو الحس وأصحاب القلوب الضعيفة. الحرب ضد عش الدبابير هي حرب بلا هوادة، أي أن نتائجها إمّا الهرب بلا رجعة، وإمّا الإبادة التامة للطرف المهزوم.

لا حديث هنا عن ميثاق جنيف، ولا وقوع أسرى، ولا توقيع اتفاقيات استسلام، وطبعاً لا يوجد توقيع معاهدات سلام ـ والسبب بسيط: بعد هذا النوع من الحروب لا يوجد مَن نجلس معه على طاولة المفاوضات.

كيفما أقلّب الأمور أجد أن يدي هي السفلى: واحد مقابل مجموعة؛ جندي من المشاة في مقابل طائرات حربية: ديمقراطي محب للحرية الليبرالية وحقوق الإنسان في مقابل مجتمع شمولي لا يكترث بتاتاً بحياة مقاتليه، فكم بالحري بحياة العدو. لكن حصراً بسبب هذه الأمور عرفت أني سأنتصر لأن الحق معي، وأنه على الرغم من النجاحات التي يحققها الشر من حين إلى آخر، فإن الأخيار ينتصرون في النهاية.

لو غضضنا النظر عن إمكان اعتبار هذا الوصف مجازاً يعبّر عن الحرب ضد العرب والفلسطينيين، والتّهم المكالة لهم بأنهم أشرار وحياة مقاتليهم لا تهمهم، إلى آخر ما هنالك من الأوصاف، يمكن القول إن هذه التوصيفات حتى إن قيلت بتهكم، إلاّ إنها تعكس البيئة الحاضنة للكاتب، والقاموس المتداول والشائع والمتعلق بالصراع العربي ـ الإسرائيلي، والمعبَّر عنه من وجهة نظر إسرائيلية طبعاً.

لكن هل هذا كل شيء؟ لا... فأنا أعتقد أن الكاتب منقسم على نفسه كأنه تجسيد لمقولة نيتشه: "لقد فعلتُها ـ تقول ذاكرتي، لكن كبريائي تقول: لا، ما كان في إمكاني أن أفعل ذلك. وتبقى مصرّة على أقوالها إلى أن تستسلم الذاكرة." فـ "الديمقراطي، محب الحرية والليبرالية وحقوق الإنسان"، والذي يواجه الأشرار وينتصر عليهم لأن العدالة "في صفه"، يعرف في دخيلة نفسه أن هناك صراعاً بين ذاكرته وكبريائه (الكبرياء هنا بمعنى التصور الذاتي الإيجابي). فالذاكرة تقول: "لقد احتللنا الأرض وطردنا منها شعباً تاركاً وراءه تينه وزيتونه، باسم الوعد الإلهي، لكن الكبرياء تحاول إيجاد مبررات تحفظ ماء الوجه." من هنا يتم اللجوء إلى استراتيجيا الدعابة تفادياً للحرج، وتهرّباً من مواجهة الموضوع مباشرة. وفي هذا السياق أَوْرَد مثالين:

الأول يتحدث فيه عن طائرين قال إنهما "يطردان نقار الخشب من حديقتي، ليس لأن اللـه وعدهما بهذه الأرض، بل لأنهما يريدان تجاويف التعشيش التي نقرها في جذوع الشجر."

أليس هذا شبح الفلسطيني يطرق باب الذاكرة بقوة؟

أمّا المثال الثاني فيقدمه عندما يتحدث عن حبه لثمرة التين، فيقول أنه "يقطف ويأكل حبات التين من أشجار التين المهجورة... بعض هذه الأشجار زرعته الطيور، لكن أغلبيته موجودة في أماكن كانت توجد فيها قرى عربية." ويكمل: "هناك عبارة عبرية رائعة تعبّر عمّا يسمى باللغة العبرية السياسية الركيكة في يومنا

هذا 'الأمن والسلام'، وهي 'الجالس تحت داليته وتينته'."

هذه الظاهرة ليست جديدة. ففي سفر التثنية قال الرب لشعب إسرائيل إنه تنتظره في أرض كنعان "'بيوت مملوءة كل خير لم تملأها، وآبار محفورة لم تحفرها، وكروم وزيتون لم تغرسها'. وهذا فعلاً ما وجده شعب إسرائيل عندما احتل أرض كنعان، وهذا ما وجده هنا أيضا الفلسطينيون القدامى والأشوريون والبابليون والفرس واليونانيون والرومان والبيزنطيون والصليبيون والعرب والأتراك ـ جميعهم وجدوا هنا أشجار تين وزيتون لم يغرسوها، ووجدوا سلاسل حجرية لم يبنوها، وآبار مياه لم يحفروها، وأضافوا من عندهم ما سيأخذه أصحاب الأرض المقبلون. إنها قصة هذه الأرض التي وعدها العديد من الآلهة والأرباب لشعوبهم، والتي احتلها العديد من الغزاة، وادعى كثيرون أحقيتهم فيها. وهذا هو التحذير الذي تطلقه لكل واحد من أبنائها وحكامها."

هنا تحاول كبرياء الكاتب أن تقدّم حجتها، فنراه يتحول فجأة إلى شيخ بمسبحة يردد بصوت أجش :"إيييييه ... دنيا!" وذلك في رأيي تحت وطأة الذاكرة المسكونة بأشباح الفولكلور الفلسطيني، والقرى المهجرة والأشجار المسنّة "المتروكة" ليأكلها غير غُرّاسها. وفي لحظة صدق مع نفسه يقول: "إنها لن تدوم لنا كما لم تدم لغيرنا." لكن ـ من ناحية أُخرى ـ كأنه يقول مبرراً، إنه "في هذه الأثناء" هذا دورنا في الوجود على هذه الأرض وحيازتها (كأنها أرجوحة ينتظر كل واحد دوره في الركوب عليها).

سأختم هذه الحديقة البرية بالزنابق، وأعني هنا قصيدة "جندي يحلم بالزنابق البيضاء" للشاعر محمود درويش؛ فالمعنيّ بهذه القصيدة إسرائيلي كان شاباً وقت كتابتها، وأصبح الآن مؤرخاً هو شلومو ساند الذي يُدرّس في جامعة تل أبيب مادة التاريخ. ويبدو للوهلة الأولى كأن تصدّعه النفسي أقل حدة، فمواقفه بصورة عامة إيجابية من القضية الفلسطينية، لكنه حقيقة يحتاج إلى حفر أركيولوجي أعمق لملاحظة الفجوة بين الذاكرة والكبرياء لديه. وقد قرأت له كتابَين قيّمَين، الأول بعنوان "متى وكيف تم اختراع الشعب اليهودي؟"، والثاني "متى وكيف تم اختراع أرض إسرائيل؟". ففي الكتاب الأخير، وقريباً من ختامه، نجده يدعو إلى التذكير (ولو عبر لوحة تذكارية) بقرية الشيخ مؤنس المبنية على أنقاضها جامعة تل ابيب، والتي تحولت إلى حي من الأحياء الراقية في المدينة ـ والذي يقطن فيه المؤرخ نفسه ـ فيقول:

> بعد هذه الرحلة الطويلة والمضنية في "أرض الآباء" المترامية الأطراف، سأنتقل فيما يلي إلى مكان صغير يمكن أن يساهم النقاش بشأنه في شرح طبيعة إنتاج الذاكرة وهيكلة النسيان في إسرائيل. ولذلك قبل الختام أود التعريج على مكان محدد أخزّنه كجرح في داخلي.

ويقصد قرية الشيخ مؤنس التي يقول إنه تم تهجيرها في ٣٠ آذار/مارس ١٩٤٨؛ ويكمل:

> بيوت وبساتين القرية لم تعد قائمة، ولم يبقَ منها غير مبنى أو ثلاثة مبعثرة هنا وهناك وآيلة إلى السقوط، فضلاً عن بعض القبور المهدمة والمهملة، وبعض أشجار النخيل التي صمدت بصورة خاصة لأنها ـ بالمصادفة ـ لم تقف حجر عثرة أمام مواقف السيارات. وبمحاذاة هذه الأنقاض تماماً ازدهرت جامعتي، هذا الصرح العلمي الكبير في إسرائيل الذي أقيم على أراضي القرية. وقد كتبتُ بعض فصول هذا الكتاب الذي تقلّبون صفحاته الأخيرة في إحدى غرف العمل التابعة لهذه الجامعة، واستوحيت ـ أخلاقياً ـ بعض الاستراتيجيات السردية، من هذا التجاور الغريب بين الممحي والمبني، في هذا الاحتكاك الذي لا يطاق بين الماضي المتملص والحاضر الذي يهجم ويهزّ الكيان.
>
> كمؤرخ، وبصفتي مؤتمناً على الذاكرة (بشهادات علمية)، والذي يعتاش على سرد أيام البارحة، لم

يكن في إمكاني إنهاء هذا الكتاب من دون أن أتواجه مع ماضي هذا الفضاء الذي يحتضن حياتي اليومية. صحيح أن يد الإنسان عملت كل ما في وسعها تقريباً لإخفاء ومحو ما تبقّى من أنقاض، إلاّ إن الأرض هي الأرض نفسها، والسماء هي السماء نفسها، وأُفق البحر البازغ من الغرب ما زال هو الأفق نفسه الذي ـ منذ زمن غير بعيد ـ أبصرتْه عيون أُخرى.

فأنا أعيش في أحضان أمّة وفي بقعة أرض هما نتاج هيكلة صارمة لعملية تذكّر تشرئب بعنقها لتطاول نحو ٤٠٠٠ عاماً مضت. فالذاكرة اليهودية التي تم الاشتغال عليها واسترجاعها تقع في صميم الحركة الصهيونية التي جُعلت أساساً لشرعنة مشروعها الاستيطاني. وهذا (بين أمور أُخرى) هو مصدر هذه العقلية السياسية الإسرائيلية التي تنص على أن الزمن الفلسطيني "القصير" لا يمكن أن يكون موازياً لقيمة الزمن اليهودي "الطويل": فما قيمة النفي الممتد لنحو ٦٠ أو ٧٠ عاماً في مقابل النفي الذي امتد ٢٠٠٠ عام؟ ما قيمة حنين فلاحين بسطاء وذريتهم في مقابل الحنين اليهودي الأبدي؟ ما قيمة المطالبة بأحقية لاجئين في ملكية الأرض في مقابل الوعد الإلهي؟ (حتى لو لم يؤمن البعض بوجود هذا الإله من أساسه؟).

التذكّر، بكرم وشجاعة ـ حتى إن شابه بعض النفاق ـ لا يزال الشرط الأساسي لأي حضارة متنورة. وعلاوة على ذلك، كم علينا أن نتعلم لنفهم أن الضحية لن تغفر أبداً لجلاّدها غير المستعد للاعتراف بجريمته، ويرفض تقديم تعويض عنها؟

هنا نتساءل عن ماهية هذا التعويض الذي يفكر فيه المؤرخ، والذي يستوجب بالتالي أن تغفر الضحية لجلادها على جريمته؛ وهل يشمل عودة اللاجئين (البديهية) وذريتهم إلى بلدهم؟ لكنه سرعان ما يضيف: "طبعاً لا أؤمن بأن ذرية اللاجئين الفلسطينيين سيتمكنون من العودة بجموعهم إلى الأماكن التي عاش فيها آباؤهم وأجدادهم"، ويحيلنا إلى عملية السلام الموعود والكفيل بتقديم التعويض الملائم، لكنه إلى حين قدوم هذا السلام يطالب بوضع "لوحة تذكارية" للتذكير بمهجّري قرية الشيخ مؤنس في الجامعة، فيبدو الأمر كخطوة تحفظ مكاناً يتيح لإسرائيل الالتحاق بركب الحضارة المتنورة التي "تتذكر" ضحاياها، وهو ما يساهم في تعزيز التصور الذاتي الإيجابي، أي أنه الكبرياء التي تُصر على أقوالها وتُخضع الذاكرة لإملاءاتها. فالمهم هو لقب "التنوّر"، وبحد أدنى من المجهود لاستحقاقه.

أشرت إلى أن هذا المؤرخ هو المعنيّ بقصيدة "جندي يحلم بالزنابق البيضاء"، وعند العودة إلى كتابه "متى وكيف تم اختراع الشعب اليهودي؟"، نجده يستهله بالحديث عن ثلاث شخصيات كان لها أثر في قلبه، وكان محمود درويش هو الشخصية الثالثة والأخيرة. يتحدث المؤرخ عن نفسه كجندي حين التقى الشاعر بعد سنة ١٩٧٦ في حيفا، ويقول:

بينما كان الجندي قد حارب في المدينة المقدسة، تم تكبيل محمود في شوارع مدينة حيفا واقتياده إلى المخفر، وعندما عاد إلى بيته التقى به الجندي وسهرا ليلتهما معاً... حاول الشاعر أن يقنع المعجب الشاب به بأن يبقى ويقاوم، وألاّ يهرب إلى مدن أجنبية، ولا يهمل الوطن المشترك، غير أن الجندي عبرّ عن قرفه من صيحات النصر، عن يأسه، عن إحساسه بالغربة عن الأرض التي سُفكت عليها دماء زكية. وفي ختام السهرة تقيأ كل ما في بطنه. عند الظهيرة أيقظه مضيفه وترجم له قصيدة كتبها عند الفجر بعنوان "جندي يحلم بالزنابق البيضاء":

... يفهم ـ قال لي ـ أن الوطن
أن أحتسي قهوة أمي
أن أعود في المساء..

سألته: والأرض؟

قال: لا أعرفها

في النهاية غادر الجندي البلد، لكن قبلها غادرها الشاعر. لم يعد قادراً على تحمّل تضييق الخناق عليه من طرف الشرطة، ولا تحمّل المضايقات والمعاكسات اليومية...

أمّا الجندي فأمضى أعواماً طويلة في باريس؛ تعلّم، وتجوّل في أزقتها الجميلة، وفي النهاية أُسقط في يده. فعلى الرغم من غربته النفسية، فإن حنينه وحبه لشوارع المدينة التي تربّى فيها، طغيا عليه، وعاد إلى المكان الذي تبلورت فيه هويته. ووطنه الذي يدّعي أنه "دولة اليهود" استقبله بحفاوة.

أمّا هذا الوطن نفسه فكان أضيق من أن يضم الشاعر الثائر الذي ولد فيه.

بهذه العبارة الجميلة يختتم المؤرخ كلامه، لكن الأجمل ـ في رأيي ـ ما يقوله الشاعر في قصيدته "لاعب النرد":

شمألتُ، شرّقتُ، غرّبتُ
أمّا الجنوب فكان قصيّاً عصيّاً عليّ
لأن الجنوب بلادي
فصرتُ مجازَ سُنونوةٍ لأُحلِّق فوق حطامي
ربيعاً خريفاً.. ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

نكبة وبقاء: حكاية فلسطينيين ظلوا في حيفا والجليل (١٩٤٨ ـ ١٩٥٦)

عادل مناع

٤٩٦ صفحة ١٢ دولاراً